

التحولات في الأرياف الجزائرية إبان العهد الاستعماري دراسة سوسيو- تاريخية سبدو نموذجا

أ/ بن أيوب محمد

قسم الثقافة الشعبية

جامعة تلمسان

Résumé :

المخلص:

A plusieurs époques, les compagnes algériennes ont subi des mutations sur l'effort de l'intervention étrangère, et malgré la diversité des conquêtes de l'Algérie, c'est l'occupant français qui allait laisser ses traces sur l'espace algérien. C'est ainsi que la compagne algérienne allait connaître de profondes mutations socio-spatiales durant l'époque coloniale dont les manifestations étaient la destruction et la reconstruction des structures traditionnelles autochtone selon la logique coloniale.

Si quelques compagnes ont été l'objet d'une profonde étude, d'autres ont été mises à l'oubli, ont besoin donc d'intérêt particulier, c'est dans ce contexte qu'on a choisi la compagne Seboudienne (38km sud de Tlemcen) comme exemple pour qu'elle serait témoin d'une phase historique qu'a connue cette région.

عرفت الأرياف الجزائرية تحولات على مراحل مختلفة نتيجة التدخل الخارجي، وعلى الرغم من تنوع الحملات الاستعمارية على الجزائر، فقد كان الاستعمار الفرنسي أكثر تأثيرا في الفضاء الجزائري، وعلى هذا الأساس تعرض الريف الجزائري إلى تحولات سوسيو مجالية عميقة إبان العهد الاستعماري تجلت في هدم وبناء الهياكل التقليدية الأهلية حسب المنطق الكولونيالي. وإذا كانت بعض الأرياف قد حظيت بالدراسة المعمقة، فإن البعض الآخر قد ظل في طي النسيان، وبالتالي احتاج إلى من ينفذ الغبار عنه. من هذا المنطلق، جاء اختيارنا لريف سبدو (38كم جنوب تلمسان) ليكون شاهدا على فترة تاريخية مرت بها هذه المنطقة.

مقدمة:

تعرضت الجزائر إلى حملات استعمارية متتالية (الرومان، الوندال، البيزنطيون، الفرنسيون) تركت آثارها إلى حد الآن. وعلى خلاف ذلك، فإن المستعمر الفرنسي واجه حقيقة لا يمكنه التهرب منها، وهي أن من أجل التحكم في الجزائر كان عليه مراقبتها كلية وبشكل مباشر.

وعلى هذا الأساس انغرس في الجسم الاجتماعي الجزائري، من خلال فرض مختلف الهياكل في كافة البلاد لتمهد له السيطرة على هذا المجتمع الانقسامي المعتاد على العيش في شبه استقلالية.

وكانت أولى الإجراءات المتخذة في هذا الشأن إنشاء شبكة مواصلات من طرق برية وسكك حديدية وبناء شبكة من المراكز العمرانية الاستعمارية، وتأتي في صدارتها القرى الاستعمارية les villages de colonisation . وباعتبارها أداة للاستغلال الفضائي والاستيطاني، ساهمت القرية الاستعمارية في تفكيك مكثف للبنى الاقتصادية والاجتماعية الجماعية Communautaire الما قبل استعمارية الجزائرية. وبناء على ذلك فرض المستعمر الفرنسي القرية الاستعمارية بسبدو لتكشف بذلك عن تحول سوسيو - مجالي عميق لمنطقة ريفية جزائرية إبان المرحلة الاستعمارية. وقد جاء إختياري هذا المقال لسببين: أولهما أن منطقة سبدو لم تحضى بدراسات عميقة باستثناء بعض المقاربات الاستعمارية التي أخذتها بتحفظ لأنها تنطلق النزعة المركزية الأوروبية والنظرة الاستشراقية، وثانيهما إبراز درجة الانغراس للمشروع الإحتلالي الفرنسي بالجزائر ومدى مقاومة الأهالي لذلك.

I الإطار العام للدراسة:

تقع سبدو على بعد 38 كلم جنوب تلمسان وكانت تعرف قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 بتافراوت، وهي كلمة بربرية تعني مكان تجمع المياه. ولم تأخذ اسم سبدو إلا بعد انخراطها في مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847) عندما بنى قلعة في

المنطقة لتكون قاعدة إسناد⁽¹⁾ استنادا إلى كلمة سبديوي، وتعني مروج ترعى فيها الحيوانات.

وبشكل عام يتشكل سطح سبدو من مجموعتين تضاريسيتين مختلفتين: سلسلة جبلية محيطة منها جبل الدبوب 1172م وحوض داخلي مستوي نسبيا يتراوح ارتفاعه بين 950م ولا يتعدى 10%. وبحكم موقعها على نقطة تماس التل والسهول العليا، فإن مناخ سبدو متوسطي شبه جاف مع وجود فصلين متميزين: حار جدا في الصيف وبارد جدا في الشتاء. تملك سبدو إمكانيات مائية هائلة سواء كمياه باطنية والتي تنفجر عيوناً مثل عين البرديل، عين سيدي عيسى، عين صحراوي، أو مياه جارية (تافنة، واد خيرة).

كان هذا هو المجال-القاعدة l'espace-support الذي ظل المجتمع سبداوي الما قبل استعماري يعيد إنتاج نفسه، وأين ستبنى القرية الاستعمارية الاستيطانية، وما سترتب عن ذلك من تحولات في هذا المجتمع المحلي.

II- سبدو عند بداية الاحتلال

1 مجتمع قبلي: كان المجتمع السبداوي الما قبل استعماري ريفيا بشكل كلي، وكانت البنية الاجتماعية تسلسلية شكلت فيها القبيلة وحدة التنظيم الاجتماعي الأعلى من، خلالها توحدت مجموعات مختلفة وفدت إلى سبدو بروابط تحالف ومصاهرة . تعتبر قبيلة أولاد ورياش أول من سكنت تافروت (سبدو) لاحقا، وهي أصلا قبيلة بربرية تنحدر من قبيلة بني حبيب التي تنتمي إلى الكونفدرالية الزناتية. وقد أخذت هذا الاسم (أولاد ورياش) بعدما وفد إليها سيدي ورياش من المغرب الأقصى بأمر من إدريس الأكبر⁽²⁾.

تنقسم قبيلة أولاد ورياش إلى ثلاثة عشر فرقة وهي كما يلي: أولاد مومن، أولاد بوحفص، أولاد سيدي عيسى، أولاد ايوب، البخايتة، الدالاحة، أولاد سيدي الطاهر، لعائيت، أولاد حليلة، رماضنة، مقنافة، أولاد بن طيب، مزيلة، وبدورها تنقسم إلى تجمعات عائلية، وكانت تقيم كل واحدة منها في الدوار. وكانت العائلة الموسعة هي البنية الاجتماعية القاعدية تناسب دائما التجمع الأبوي، فكل البيوت التي تشكلها تحمل اسم الأب. وعلى هذا الأساس هيمنت الأسرة الأبوية La Famille patriarcale.

وفي مثل هذا النوع من العائلات كان لرب العائلة سلطة مطلقة على جميع أعضائها. كما لا يرث أو يبيع الأبناء اللامنقولات وخاصة الأرض لأنها ملك جماعي. كما تعتبر العائلة الخلية الاقتصادية الأساسية. ففي داخلها تنظم عملية الإنتاج، إلى تنفيذ مختلف المهام. وكل المشكلات التي تتجاوز الإطار المحدد للعائلة تحل على مستوى الفرقة (الفرع) القبلية متى أصبحت مصالح المجموعة مهددة. ومن أجل ذلك يتشكل مجلس (الجماعة)، ويتكون من زعماء الدواوير، يتولى تسيير أمور القبيلة، وهو الذي يتخذ القرارات التي تطرح أمام المجموعة.

وفي مثل هذه المجتمعات تعطى الأولوية للمجموعة La primauté du collectif بدل الفرد الذي ينظر إليه دائما كجزء منها، ولا وجود له إلا بداخلها. ولذلك، فمن واجب الفرد الدفاع عنها ضد أي اعتداء خارجي (قريب أو بعيد)، إنه سلوك ناتج عن العصبية القبلية بالتعبير الخلدوني حيث "يصبح الاعتداء هذا مسا بالشراف الشخصي والجماعي، أي أنه يمس العشيرة ككيان معنوي ومجتمع قائم بذاته"⁽³⁾

2- استقلالية إدارية نسبية

كانت قبيلة أولاد ورياش قبيل الاحتلال الفرنسي مصنفة ضمن قبائل الرعية التي كانت تشكل المورد الرئيسي للبايلك التركي من خلال جباية ثقيلة، بعد مرحلة من التمرد على السلطة⁽⁴⁾. ومع ذلك فقد كانت القبيلة تتمتع باستقلالية نسبية حيث كان مجلس القبيلة يؤسس تحليلاته ومداولاته من خلال الاتفاق بين أعضائه ليكون بمثابة قانون مستوحى من التقاليد والعادات، يتضمن الأعمال التي ينبغي تجنبها أو الموافقة عليها. ومن خلال مداولاته وقراراته يستند المجلس دائما إلى عهد الأسلاف الصالحين والتقاليد الدينية. ففي مثل هذه المجتمعات يعتبر الولي الصالح فاعلا دينيا وسياسيا **ACTEUR POLITICO- RELIGIEUX**. وعلى هذا الأساس يعتبر سيدي الطاهر الإدريسي الولي الرئيسي لقبيلة أولاد ورياش (مول البلاد) وفد إلى تافراوات في النصف الأول من القرن 17م. فمن خلال بركاته وكراماته وتوجيهاته حافظ على تماسك القبيلة. وبحسب الرواية الشفوية قال سيدي الطاهر: "يا أولاد ورياش راني ضامنهما من الجبل

للجبل، أنا وتد وانتم حبال". كما لعب دور الوسيط بين قبيلته والسلطة البايليكية أو فيما بين القبائل، التي كانت تتصارع من حين لآخر حول الماء والأرض والشرف .. الخ. وفاته وكغيرها من عدة قبائل اعتادت قبيلة أولاد ورياش تنظيم موسم سيدي الطاهر المعروف بالعودة كل سنة في نهاية شهر سبتمبر. فلمدة ثلاثة أيام تنتقل فروع القبيلة إلى مقام سيدي الطاهر بقرية تبودة وتتصب خيامها حوله وفق مخطط متفق عليه بين أعيان العرش لا يزال يلتزم به إلى يومنا هذا.

3 اقتصاد زراعي- رعوي تقليدي:

تميزت الأسس الاقتصادية للمجتمع السبداوي الما قبل استعماري بهيمنة الرعي وبعض الزراعات المعاشية Les cultures vivrières وخاصة الشعير، والتي ظلت نشاطا ثانويا مركزا حول أهم الوديان (تافنة، واد خيرة)، ذلك أن معظم الساكنة كانت تمارس الرعي.

ونظرا لضعف المراعي بسبدو، فقد كان لزاما على المجتمع الرعوي التحرك في المجال، كما أن الاعتماد المطلق على العشب والماء وفي غياب الأعلاف اضطر الرعاة إلى استغلال مختلف الفضاءات. وقد كانت حركية السكان ومواشيم تتغير حسب الفصول، وتجلت في التنقلات على المسافة المتوسطة، لتحديث بذلك تكاملا بين مختلف الوحدات الجغرافية للمنطقة كما يلي:

الجبل ← السهل في الربيع والصيف

السهل ← الجبل في الخريف والشتاء

كان الاقتصاد السبداوي الما قبل استعماري يعاني من تأخر تقني، وهذا ما جعل المردود ضعيفا، إضافة إلى أنماط الاستغلال التي لا تؤدي إلى إنتاجية أكبر نظرا لطبيعة توزيع الأرض (غياب الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج عموما). وكان النشاط الاقتصادي للمنطقة موجها نحو الكفاف LA SUBSISTANCE أكثر منه نحو السوق نظرا لضعف المبادلات بين المدن والأرياف وبين مختلف الجهات.

لقد استطاعت القبيلة الرعوية لما قبل استعمارية بسبدو المحافظة على أشكال التكامل التي ميزت المراعي، لتحقيق بذلك التوازن بين النشاط البشري والطبيعي. إن التضامن القبلي المعبر عنه من خلال استغلال جماعي، أصبح حقا جماعيا. ومن هنا شكل التماسك القبلي الشرط الأساسي للحفاظ على ديمومة هذه التوازنات⁽⁵⁾

III الاستعمار الفرنسي والتحويلات في الريف السبداوي

1- إحتلال سبدو واندلاع المقاومة

بعد احتلاله لتلمسان سنة 1836 ومن أجل ضمان الأمن في المنطقة الجديدة تحتم على المحتل الفرنسي إقامة مركز استعماري بسبدو. لقد كان لاحتلال هذه المنطقة (سبدو) في 9 فبراير 1842 أهمية كبيرة بالنسبة للسلطات العسكرية الفرنسية من الناحية الإستراتيجية. فموجب موقعها على حدود التل والهضاب العليا، فقد كانت سبدو تسيطر على الطرق التي من خلالها كانت القبائل الجنوبية تهاجم القوات الفرنسية المعسكرة في الشمال. وكانت تراقب أيضا الطرق التي تمكن من الإنسياب إلى الجزائر عبر المجرى الأعلى لنهر تافنة مرورا ببني سنوس⁽⁶⁾.

وهكذا قررت السلطات الفرنسية بناء مركز عسكري بسبدو لحماية مؤسساتها في التل وتجنباً لإمكانية تحرك مغربي. وبعد دراسة موجهة من الجنرال دي لامورسيار DE LAMORICIERE كلف فيها الرائد دي مارتيمري De Martimprey سنة 1843 أصبح بناء هذا المركز أمرا حتميا. وفي بداية شهر جانفي 1844 يستقر النقيب دي لورمال De Lourmel من الكتيبة الثامنة للجنود الخيالة بعين المكان لتنظيم الفضاء ومراقبة البناء.

وقد بنى هذا المركز المحصن على أنقاض القلعة التي بناها الأمير عبد القادر، والذي سيوجه لاحتضان ثكنة عسكرية فرنسية هامة. وقد دامت أشغال البناء حوالي ست سنوات كانت مكلفة جدا حيث بلغت النفقات حوالي 70000 فرنك⁽⁷⁾ سنة 1845. تميز تصميم هذا المركز ببناء سياج حائطي على طول 77م لكل ضلع وعلى علو 4 أمتار وخندق حام. وبداخل المركز بنيت عدة تجهيزات: مستودع الذخيرة والأغذية، مستشفى،

المصالح العسكرية، حوانيت، وفي الطابق الأول سكنات لضابط سام وعشرين ضابط مساعد. وقد كان هذا المركز من الشواهد الأولى على التهيئة الفضائية للريف السبداوي، وبالتالي بداية التحولات السوسيو مجالية للمنطقة.

غير أن استراتيجية المستعمر هذه واجهت مقاومة عنيفة من الأهالي. فأكثر من ثماني سنوات شكلت القبائل المجاورة لهذا المركز تهديدا حقيقيا باستمرار زغزغ استقرار الممثل في هذه المنطقة. وكان لانخراط هذه القبائل تحت لواء مقاومة الأمير عبد القادر دورا في اندلاع انتفاضات كما حدث في شهر أكتوبر 1845 لما انتفض أولاد ورياش ضد المحتل وإحاقه خسائر بشرية حيث قتل فيها كل من الرائد بيو **BILLOT** قائد المركز العسكري الفرنسي ورئيس المكتب العربي النقيب دو دومباسل **DE DOMBASLE** وجنديين من الخيالة⁽⁸⁾.

وهكذا ظلت سبدو قبل كل شيء مركزا عسكريا محصنا هدفه مراقبة القبائل المجاورة للحيلولة دون قيامها بهجمات على المراكز الاستعمارية التالية. وعلى هذا الأساس لم يوفر اللأمن بناء قرية استيطانية مدنية أوروبية بجانب المركز العسكري، وهو ما يتجلى في الضعف الكبير لعدد المدنيين الأوروبيين حيث بلغ عددهم سبعة فقط سنة 1846 من بينهم 4 فرنسين.

VI - انتصار الاحتلال وظهور التحولات الأولى في الريف السبداوي

على اثر استسلام الأمير عبد القادر سنة 1947 بدأت المقاومة تضعف تدريجيا في منطقة سبدو حيث استسلمت القبائل بفعل الإستراتيجية العسكرية للجنرال كافينياك **CAVAIGNAC**. ومع "عودة الأمن" تدريجيا إلى المنطقة أصبحت الظروف ملائمة لإقامة نظام جديد بهياكل جديدة وتنظيم المجال تماشيا مع المنطق الكولونيالي. وبناء على ذلك كانت أولى الإجراءات التي اتخذها المستعمر تنظيم سوق أسبوعي في الثلث الثالث من سنة 1848 لتسهيل المعاملات التجارية، وتشجيع الأهالي على الذهاب إلى مركز موثوق أين سيجدون زبائن، أو يشترون لحسابهم السلع التي يحتاجونها. وبشكل سريع أصبحت فكرة توسيعه ضرورية حتى يستطيع استقبال العدد المتزايد والمتنوع للأهالي، ففي سنة 1951 قصد هذا السوق أفراد من عدة قبائل مجاورة وحتى

من المغرب: حميان، انقاد، أولاد نهار، بني بوسعيد، بني سنوس، بني هديل⁽⁹⁾. وعلى الرغم من أن سبدو ظلت لمدة طويلة مركزا عسكريا، فهذا لم يمنع السلطات الاستعمارية من التفكير جديا في بناء مركز استيطاني مشكل من المدنيين. وتكمن أهمية هذا المركز بالنسبة للمستعمر في انه سيدعم الاحتلال العسكري، ويعزز من خلال ذلك سيطرته على قبائل محيط سبدو الواسع جدا، ومن ثم تنمية العلاقات بين الأهالي والأوروبيين.

ومن هنا أصبح بناء هذا المركز قرارا لا رجعة فيه، فبدأ من 1860، وبعد الدراسات التقنية قررت السلطات الاستعمارية لمقاطعة تلمسان انتزاع أراضي قبيلة أولاد ورياش بهدف توزيعها، على المعمرين المحتمل إقامتهم في القرية المنتظرة، من خلال تطبيق عدة قوانين عقارية: 18 فبراير 1846 عقب انتفاضة أكتوبر 1845، قرار مجلس الأعيان لـ 22 أبريل 1863، قانون واري 1873. وفي أبريل 1870 تقرر إقامة المركز الاستيطاني الأوروبي بسبدو بشكل نهائي. وقد تضمن مخططه خلق 51 تجزئة للبناء، مع بعض الفضاءات للحدائق والزراعات. ولم يصبح المركز جاهزا نهائيا إلا سنة 1872، والذي برز في المجال من خلال مخططه الشطرنجي وفي هذه الظروف أنشأ المستعمر بلدية مختلطة بسبدو وسنة 1867 التي ستوسع سنة 1875، وتتشكل من خمس مراكز أوروبية وعشر دواوير - بلدية ومنها دوار سبدو.

كانت القرية الاستيطانية الزراعية بسبدو قد شيدت لاحتضان 145 عائلة. كما وجهت القطع الأرضية المجزأة لإنجاز مرافق للمصلحة العمومية، الدرك، الجمارك، البلدية، المدارس، الكنيسة، المستشفى.. أما الطرق المستعملة التي كانت تنطلق من سبدو إلى مختلف الاتجاهات، فقد غيرت مساراتها ومن بينها طريق سبدو - تلمسان.

ومن النتائج المباشرة لبناء المركز الاستيطاني بسبدو تقلص أراضي الرعي المتجول⁽¹⁰⁾ والزراعات المعاشية لصالح التوسع في الزراعات الأوروبية كزراعات الحبوب (القمح خاصة) الزراعات التجارية الصناعية (الخزامة، الكروم). وبإنشاء القرية الإستطانية بسبدو تشهد المنطقة بداية استقرار البدو الرحل السبداويين كما مكن

إدخال الزراعة الرأسمالية الأهالي من اكتساب خبرات زراعية تناسب كل نشاط في المزارع الجديدة : القطف، الحرث، الترصيص، التجفيف، تقليب، تسطيح الأرض... الخ. وقد كان لهذه التحولات آثار على المجتمع الأهلي المحلي منها تلاشي بروابط التضامن التي كانت أساس النظام الجماعي وتنامي الفردنة⁽¹¹⁾، كما تنوعت التركيبة الديمغرافية للمركز الجيد لسبدو. الكتلة المستعمرة الأوروبية، قبائل الجهة، البرجوازية التلمسانية.

الخاتمة:

اتضح من خلال هذه الدراسة والتي اخترنا فيها سبدو كنموذج أن الريف الجزائري قد عرف تحولا عميقا إثر الغزو الفرنسي للجزائر. لقد كان المجتمع الما قبل كولونيالي ذي الأغلبية الريفية في الجزائر عند بداية الاحتلال متمحورا حول الجماعة، التي كانت تحدد مجالات التضامن، وقد شكلت القبيلة أساس التنظيم الاجتماعي. كما كان النمط الحياتي الرعوي المرتحل أحد سمات المجموعات السكانية في عدة مناطق ريفية وقد كانت قبيلة أولاد ورياش نموذجا.

ومع الاختراق الاستعماري للجزائر سنة 1830 سيتعرض العالم الريفي إلى تغيرات عميقة تجلت في إقامة نظام جديد وهياكل جديدة وتنظيم فضائي جديد (القرية الكولونيالية وهياكلها، نمط السكن، المزارع الاستعمارية...).

وهكذا ستعرف الحياة الجماعية تعديلات وخاصة على مستوى استعمال الفضاء. كما أن الريفيين حيث الإطار المعيشي قد تغير حاولوا تكيف نمطهم المعيشي الجماعي وتقنياتهم التقليدية مع الظروف الجديدة، دون أن يترتب عن ذلك اندماج بين المجتمع الأهلي والكتلة المستعمرة. وعلى الرغم من وجود إرادة سياسة في جزأة جميع مناحي الحياة، فإن آثار المستعمر لم تختفي بعد كما يبرز ذلك في النواة الكولونيالية لمدينة سبدو.

المراجع:

- 1- أندري نوشي وآخرون، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص 266.
- 2- M.J.D'ESCHAVANNES, Les Ouled ourèch, Revue de l'orient de L'Algerie et ses colonies. Tome neuvième.Paris, 1851, P281.
- 3 -د. محمد عابد الجابري، حكر ابن خلدون، العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط7، 2001 ص ص 172، 173.
- 4 -نظم دايات وهران حملات متتالية على منطقة تافراوت بهدف إخضاع قبيلة أولاد ورياش لسلطة البايك وإرغامها على دفع الضريبة أهمها حملة الباي حسن بن موسى الذي فرض على هذه القبيلة دفع حصان و 200 ريال سنويا للبايك.
- 5 -د. عدي الهواري، الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكيك الاقتصادي الاجتماعي 1830-1980، ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1983، ص 20.
- 6- André Lecocq, Histoire des débuts de la colonisation dans la subdivision de Tlemcen(1842-1870) tome 1 Oran, 1941, p218 .
- 7- Ibid, p 219.
- 8- Ibid, p 221.
- 9- Ibid, p 227.
- 10 -د- عدي الهواري، مرجع سابق، ص 21.
- 11-Pierre Bourdieu, le deracinement, Paris 1964, pp 30-31.